أحمد بوزفور

نافذة على الداخل

قصص

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

منشورات طارق

أحمد بوزفور

نافذة على الداخل

طارق للنشر

رقم الإداع القانوني: 2013MO0456
ردمك: 978-9954-419-73-1

© منشورات طارق

جميع الحقوق محفوظةً، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

إصدارات الكاتب

النظر في الوجه العزيز (مجموعة قصصية). منشورات الجامعة. الدار البيضاء 1983

الغابر الظاهر (مجموعة قصصية). مطبعة فضالة. الدار البيضاء 1987

تأبط شعرا دراسة تحليلية في الشعر الجاهلي. منشورات الفنك. الدار البيضاء 1990

صياد النعام (مجموعة قصصية) منشورات نجمة. الدار البيضاء 1993

الزرافة المشتعلة (قراءات في القصة المغربية الحديثة). شركة النشر والتوزيع المدارس. الدار البيضاء 2000

ققنس، مجموعة البحث في القصة القصيرة. الدار البيضاء 2007

ديوان السندباد (المجاميع القصصية الكاملة). طبعة جديدة مزيدة. مجموعة البحث في القصة القصيرة. الدار البيضاء 2010

منشورات طارق
321، شارع إبراهيم الروداني -الدار البيضاء- المغرب
العنوان الإلكتروني : tarik.edition@gmail.com
الموقع الإلكتروني : www.tarikeditions.com

نافذة على الداخل

المكتبة

"كُلّكم طالبُ صيد
غير عمرو بن عبيد

قالها أبو جعفر المنصور لأفراد حاشيته وهو ينظر إلى الشيخ الزاهد عمرو بن عبيد، ينصرف رافع الرأس من مجلسه، بعد أن نصح الخليفة ورفض عطاياه".

... وأغلقتُ الكتاب. المفروض أن أقرأ الكتاب في مكتبة الثانوية، لكن المحافظ كان قد سمح لي بأخذ الكتاب معي إلى البيت، لأُخلي له المكتبة.

كتابٌ غريب. حين قرأته لأول مرة، كان يحكي قصة السندباد. وأعدت قراءته في الغد فوجدته يتحدث عن قصص الأنبياء، ثم وجدته في اليوم التالي يستعرض سيرة الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور. كتاب سحري يتجدد كلّ صباح. ربما لذلك كان عنوانه الذي لا يتغير أبدا هو "المكتبة". لم يكن الأستاذ المحافظ يعرف هذا الكتاب، ولا أي كتاب آخر في مكتبته. كان يهتم فقط بإخلاء المكتبة من عشاق القراءة أمثالي، ليدخل إليها عملاءه من التلاميذ الذين يوزع عليهم الهدايا والعمولات، والذين يأتمرون

بأمره في شنّ الحمـــلات ضد الأساتذة النُزهاء، ثم يدخل إليها سلعته البضة من التلميذات اللاتي يوزعهن على أسياده المتصابين في العمالة والبلدية والمحكمة والكوميسارية والشركات. الأستاذ المحافظ كان معروفاً على الصعيد الاجتماعي في المدينة كلّها، لأنّه كان يمارس السياسة، إذا فهمنا السياسة بمعنى قضاء الحاجات، أو تقديم الأجيال الصاعدة قرباناً على مذابـــح الحاجات والمصالح.

على أي حال، لم يكن ذلك يهمني أنا. ما كان يهمني في الدرجة الأولى هو أن يسمح لي بالقراءة في المكتبة. لكنّه لم يعد يطيقني. في الحقيقة أنا الذي لم أعد أطيقه. أخذت أعبّئ كل من أعرف ضده. وكأنني كنت أعبئ رمل مرزوكة في غرباء. خانتني الثقوب التي لا أراها، وانفض من حولي أصدقائي التلاميذ، والشرفاء من الأساتذة والمعيدين، وحتى الآباء والأمهات. كأنما كان المحافظ يسحر لهم عند فقيه سوسي. فساسوني. بقيت وحدي أصـــرخ في البرية كنبي من أنبياء بني إسرائيل.

وحين عزلني، لفق لي تهمة سرقة الكتب، والتحرش بالتلميذات (رمتني بدائها). وانعقد مجلس تأديبي من أزلام المحافظ، فقرر طردي من الثانوية. كأنهم ــ يخالون ــ طردوني من الجنة. لم تكن إلا مستنقعاً آسناً

SCANNED BY JAMAL HATMAL

موبوءاً خرجت منه إلى الدنيا: مكتبة الله الكبرى، حيث في كل زاوية محافظ ومنتهزون وضحايا، حيث في كل ركن واحد مثلي يحتج فيُضطهد ويُطـــرد، وحيث لكل حيث حيثياتها المحايثة.

لم أكن أرتاح إلا وأنا أفتح كتاب (المكتبة)، فأجد في كل مرة عالماً جديداً. كتـــاب لا يُقـــرأ مرتين... كالموت. (لا أعرف يقيناً أشبه بالشك ولا شكاً أشبه باليقيـــن من المـــوت) يقـــول الحسن البصري في أحد تناسخات الكتاب. أما أنا فلم أعرف يقيناً أشبه بالشك ولا شكاً أشبه باليقين من هذا الكتاب. لذلك هربت منه. رميته في صندوق خشبي بين المهملات، وخرجت إلى الدنيا حيث كان لي في كل يوم كتاب أكتبه بجسدي، وأنا أصارع الأخطبوط من أجل لقمة العيش.

إبتلعتني الدنيا، وغِبتُ عن نفسي زمناً طويلاً. لم أنتبه إلا البارحة... حين رأيتها في الشارع فجأة. لم تتغير كثيراً، باستثناء أنها أصبحت أجمل... وأغنى... وربما أجمد... كالمرسديس التي خرجت منها. ولم تعرفني. هل تغيرتُ إلى هذا الحد؟ أما أنا فعرفتها: التلميذة التي عشقتها في الثانوية، والتي طردوني من أجلها، لأني رفضت أن يتاجروا بجسدها في سوق (المكـتبة). لم تعرفني... أما أنا، فعدت إلى البيت، وفتحت الصندوق الخشبي، ونفضت الغبار عن الكتاب... وأخذت أقرأ...

الغريب أني وجدته هذه المرة يتحدث عن نفس السيرة القديمة التـــــي قرأتها فيه ذات يوم: سيرة أبي جعفر المنصور، ووجدتها تنتهي بنفس النهاية:

الخليفة ينظر إلى ظهر الزاهد المنصرف، ويقول لأفراد حاشيته:
"كلكم طالب صيد
حتى عمرو بن عبيد
حتى عمرو بن عبيد".

شخصيات خاصة جداً

سولارو

قال لي إنّ اسمه (سولارو)، وإنّه من قبيلة التانكا التي تعيش على نهر بغرب أفريقيا. قال لي: أعرف أنّ اسمي سيتغير، سيصبح بعد ميلاد المسيح (سولاريس)، ثم إدريس في القرن العشرين. قال لي: لا يتغير إلا الأسماء، أما المسمى فواحد، وخالد. قال لي ما اسمك؟ قلت له: سمّني، قال باسماً: اسمك (سولارو). قالها، ثم تحول إلى هواء، وتسرب إلى رئتيّ مع الأوكسجين.

عسجد وسندس

كانا في ملك سكينة بنت الحسين، وكانا يشتريان لها الغلمان والجواري. جاءاني أمس وأنا نائم، وقعدا عند رأسي بحيث أسمعهما. قال عسجد: ما رأيك فيه؟ نأخذه؟ قالت سندس: من هو نخاسه؟

ـ هو آبقٌ الآن، ولا نخاس له.

ـ وماذا يُحسن؟

ـ يكتب القصص.

ـ لا أعتقد أنّه يصلح. ماذا تفعل سكينة بعبد إذا نام أبق، وإذا صحا كتب القصص؟!

طفلة الماء

لا أذكر أني أبصرت الوجه اللوزيَّ لتلك الطفلة يوما أو عينيها الباكيتين.

لم أسمع قطّ بتلك الوسوسة الخجلى لأساور من ذهب أزرقَ تصّاعد والطفلة تخطو نحوي.

لم أحدس يوما خوف الأطفال الأبيضَ كالغيم الصيفيّ ولا ذقتُ الطعمَ المرّ لخوف الآباء.
فلماذا تأتيني في الأحلام؟

واضحةً كالماء وغامضةً كالماء وطافيةً أو راسبةً كالماء؟

ولماذا أسمع وهي تغيب نداء مجروحا يجذبني جذبا نحو الماء؟
فأُفيق من الرعب وأسرع نحو الحمام
لأغرق خوفي في الماء؟

هاب هاب

تعال أيها الصديق. من أنت؟ وما هو اسمك؟
ـ لا اسم لي. تستطيع أن تناديني (هاب هاب). أنا الشخصية الرئيسية في أدب غوغول وكافكا وماشادو دو أسيس وعبد القادر وساط و....

ـ وماذا تريد ياهاب هاب؟
ـ أريد أن تكتبني.
ـ أكتبك؟ بعد ما كتبك هؤلاء العباقرة الكبار؟
ـ إنهم لم يكتبوني، بل ترجموني. أنا أريد أن أقول ما أشاء أنا لا ما يشاء الكُتاب.
ـ طيب. الكلمة لك الآن أيها الصديق. قل ما تشاء.
ـ هاب هاب... هاب. هاب هاب... هاب.
ـ وما معنى هذه العبارة الجميلة؟
ـ لا معنى لها. هي هكذا. هل تريد
أن تترجمني أنت الآخر؟

الدودة

ـ ما اسمك أيتها الدُودة؟
ـ اسمي ماجدا.
ـ مرحبا ماجدا. ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟
ـ أعطني قلبك. أريد أن أقضمه على مهلي طوال هذا الشتاء.
ـ جئت متأخرة ياصديقتي. قلبي أخذته زَهْرة منذ زمان.
ـ إذن سآخذ دماغك.
ـ خذيه ياعزيزتي. إنّه محجوز لك أنت بالذّات.

الحصاة

غدا سوف أذهب إلى البحر، وأقذف فيه بهذه الحصاة. ورثتُها عن أبي الذي ورثها عن أبيه الذي... أعرف أنها مجرد حصاة. ولكن أبي كان يقبّلها كل مساء قبل النوم، ويعيدها إلى الصندوق الخشبي (فيها سرّ الشجرة) كان يقول. وعليّ أنا أن أقبّلها كل مساء، وأن أحفظها، وأن أورّثها لولدي. غداً سوف أذهب إلى البحر، وألقي عني هذه الصخرة.

التُراب

التراب يبكي. يتكاثر في داخلي ويتراكم ويربو حتى يبلغ الحنجرة حيث ينشُجُ ويُعول. يتوسل إليّ: "دعني أخرج.. إفتح فمك أرجوك". ولكني أرفض. لو فتحت فمي لغطّى التُراب العالم.

التــعب

(1)

عيناها خضراوان. أو هكذا أتذكرهما. لم تكونا زرقاوين أو رماديتين أو عـسليّتين. كانتا خضراوين تماماً. وقد اندهشـت حينها من وجود عينين خضراوين، ولفتاة مغربيّة. هذه الدهشة، والوجه المدوّر، والخجل الطبيعي (خجل بْيُو)، والجوار... كلّ ذلك، مع أسباب ودوافع دقيقة أخرى لم أعد أعيها، وربما لم أعها حتى حينئذ، كل ذلك جعلني أقع في الحب لأول مرة.

كان حبا مفارقاً، أشبه بحبّ الحلاج لرابعة (هل أحب الحلاج رابعة)؟ طاهر... حلولي... ومخيف. كنت أراها فجأة فأقف. أتسمر مذهولاً وترتجف ركبتاي، وأريد أن أنقض كذلك الجدار في قصة موسى والخضر، ولكن من يُقِيمني؟ تمرُّ العينان الخضراوان بسرعة كالهاربتين، وأنا... أين أنا..؟ أفيق ببطء من الخدر الأخضر اللذيذ، وأتماسك شيئا فشيئاً، وأعي ما حولي. أهضم كالمعزى، بسرعة ولهفة ونهم، هبَة/هبّة مرورها المقدّس كمائدة نزلت من السماء، لأجترها فيما بعد حين أخلو إلى نفسي.

ياه... كم كتبت من قصائد شعر... أقصد قصائد حب... أقصد صلوات وسطى بين الشعر والعبادة

والحب. كنت أُغربلها وأصفّيها، ثم أرسلها مع طفلة صغيرة إليها.. أراقبها وهي تستلمها.. لا تتكلم، ولكن وجهها المدوّر يحمرّ كرمانة.. تخفيها كَلِصَّة صغيرة في ثيابها ولا تردّ.

بلى، ردت أخيراً. ضاعت مني رسالتها فيما ضاع من ذكريات الصبا، ولكني أتذكر، وقد سالت تحت جسور العمر عشرات السنوات، خطها الطفولي الأخضر، هل كتبت بالأخضر؟... خطّها الخائف المتردد بحروفه غير المكتملة وسطوره المعوجة وأخطائه الإملائية، وأتذكر المعنى العام لرسالتها: (حبك يخيفني... أنا فتات [التاء الأخيرة مطلقة. أطلقت رباط التاء ولم تطلق رباطي] بسيطة... دعني وشأني... لا أريد أن تحبني ولا أن تراسلني). ووَدَعْتُهَا. لم أراسلها من بعد أبداً، ولم أتعرض لها قطّ. تركت (الفتات) البسيطة حرّة كتائها الطليقة، ورفعت محبوبتي الإلهة الخضراء إلى سماء الشّعر حيث ما تزال تشع كالزُّهَرة، وتغمز لي كلما حاولت الكتابة كما غمزت لهوميروس في السّطور الأولى من الإلياذة.

ولكنّي، أتذكّر، أحسست بعد رسالتها الفاصلة بتعبٍ شديد... تعب استمر طويلاً، وكنت خلاله أغيب عن الوعي أحياناً، وأُحسّني كمتسلق تعبت يداه، فَأَطْلَقَ/أَفْلَتَ الحبل مرغماً، أُحسُّني أهوي بين السماء والأرض خفيفاً كالرّيشة

آملاً أن لا أصل إلى الأرض أبداً... أن تتخطّفني الطّير أو تحملني أجنحة الملائكة أو تبعثرني الريح أو يبطل قانون الجاذبية أو... ثم أفيق من الغيبوبة.

(2)

هي التي راودتني عن نفسي. لم أكن أحبها، كنت أحب حبها لي، لكنني كنت واهماً، إذ أنها لم تكن تحبني، بل كانت تبحث عن زوج. كانت ترسم المشاريع، وتفتح الآفاق، وتقول لي: تقدم... أنا وراءك. وكنت أتقدم... أتقدم ... أتكَدّم.. حتى وجدُتني على الحافة. بدفعة واحدة صغيرة من يدها (الحيّة الناعمة) كنت سأسقط إلى الأبد كجدي آدم. ولكني عقت... عُقت نفسي في اللحظة الأخيرة، فاعتذرت. لم يكن الخلاص سهلاً. كانت تبتكر كل يوم حجة للاستمرار، وكنت أُجهد نفسي كل يوم في ابتكار حجة للتوقف... حتى تعبت. كأني كنت أسير حافيا على... في الرمل، ما أن أنزع قدماً حتى تسوخ الأخرى.. بصعوبة وبطء... كأنني أمثّل في سينما بطيئة... فلمّا تخلصتُ ولم أكد، سقطت مريضاً لعدة أيّام كالمضروب بالعصيّ... كذلك الكلب المضروب بالمقارع، والذي تقول شهرزاد إنه كان إنساناً ومُسخ.

(3)

هل رأيتَ قطّ خنفساء تحاول أن تخرج من حفرة؟ ترتفع قليلا على حائط الحفرة ثم تسقط، وتحاول الصعود مرة أخرى... قد تصل إلى الحافة نفسها ثم تسقط... وتحاول مرة أخرى... وأخرى... وأخرى... كذلك كنت أحسُّ وأنا أحاول الخروج من الأُطر التي انتسبت إليها... من خليّة الحزب ومكتب الجمعية وعضوية الحلقة الأدبية والدائرة العائلية ومسقط الرأس (لماذا يسمون مكان البداية مسقط الرأس؟ الأجدر أن يسموا به مكان النهاية).

وأنا أصعد من الحفرة لأخرج، تعبت. كأنما كنت أتسلق جدران بئر. وكثيرا ما وصلت إلى الحافة، ثم سقطت إلى القاع، لأعاود التسلُّق من جديد، بإصرار نملة وذاكرة فيل. كان شعري يتساقط وجلدي يتسلخ وأظافري تنكسر وأنا أحاول الخروج. وكلّما خرجت من هُوة سقطت في هوة أخرى.

عمَّ كنت أبحث كالمجنون؟ ربما عن المعنى. أي معنى؟ لا أدري. ماذا يسمون ذلك الشيء الذي يجعلك تثق بالناس وتصدقهم؟ الشيء الذي يحفزك على العمل كي تتقدم، وعلى البحث كي تكتشف، وعلى القراءة كي تعرف، وعلى الكتابة كي تكون. ماذا يسمّون ذلك السكّر الذي تحركه بالملعقة في كأس حياتك قبل أن

ترتشفها منتشياً على مهل؟ أنا أسميه المعنى. وإنما عنه كنت أبحث في الحب والسياسة والصداقة والكتابة والـ... وعدت من الغنيمة في آخر العمر بالتعب.

هل ذلك ما عناه الشاعر بقوله: (تعب كلّها الحياة)؟ ومع ذلك فإنّي أرغب في الازدياد... من التعب؟ فليكن. من التعب.

الوحشة

في طريقين اثنتين، وفي نفس الوقت، كنت أمشي. الطريق الأولى هي الشارع، وكنت أسير فيه وسط الناس المسرعين المتزاحمين، وأنا أحاذر أن أصطدم بأحد. على يميني نهر السيارات المتدفق الذي أحاذر أن اسقط فيه، وعلى يساري العمارات القديمة المتسخة بشرفاتها التي تقطر من فوقي وأحاول أن أتفادى قطراتها القذرة... وأنا أسير بحذر كالبهلوان، في طريقي إلى المقهى الذي واعدت فيه صديقتي العزيزة. العزيزة؟ أعني... ليست عزيزة بمعنى عزيزة، ولكنها طريقة في الكلام تعودناها. لم تكن حتى صديقة بالمعنى الحقيقي للصداقة. أعني... إذا كان هناك معنى حقيقي للصداقة.

لم أُرد أن... ولكنها أصرّت، فانسقتُ للموافقة على الموعد، وفي المقهى الذي حدّدَته (لم تذكر اسمه، لكنها حددت موقعه)، وفي هذا الوقت الذي لا أخرج فيه، ولكنها أصرّت.

كالبهلوان أتابع طريقي. تدربت منذ زمان على أن أكون بهلوانا، حتى تعودت. أنا أعيش وسط مجتمع للأسف، من هو ذلك الذي قال (الإنسان حيوان اجتماعي)؟ كان

ينبغي أن يزيد كلمة (للأسف). الإنسان حيوان اجتماعي للأسف، لأنّ عليك أن تحاذر أشياء كثيرة وأنت تعيش وسط الناس، عليك أن تراعي حساسياتهم، أن تلبس على وجهك الفرح لرؤيتهم والارتياح لثرثراتهم، وأن تكظم غيظك من الغباء والثقل والنفاق، وتكبت رغبتك في الهرب راكضاً كالطريدة في الغابة، وتصبر وتتصبر وتصابر... حتى تخلص أخيراً إلى وحشتك العزيزة. (العزيزة هنا بمعنى عزيزة فعلاً).

أمّا الطريق الثانية، فهي البحر الذي أغوص فيه، لأنّني، وأنا أسير في الشارع، أو وأنا أستمع إلى الموسيقى، أو وأنا أراود عبثاً النّوم العزيز (العزيز هنا بمعنى المتمنّع)، تعوّدت أن أغوص في البحر لأتابع بحثي الدائب عن لؤلؤتي الخضراء.

وجدت لآلئ كثيرة، بألوان مختلفة، فتركتها في محاراتها. لي هدف محدد، هو اللؤلؤة الخضراء، والعاشق مثلي لا تشغله عن البنت المعشوقة بُنيَّات الطريق.

حولي أسراب من السمك الملوّن (بحري يشبه البحر الأحمر في ألوان كائناته، مهرجان ألوان متناسقة كالنّغمات). أسراب السمك تعرفني، ترافقني في نفس اتجاهي، وتلامسني بفرح وهي تبتسم دون أن تصطدم. نسير معاً في البحر كأطفال يجرون إلى

البحر، كالطيور القواطع وهي عائدة الى أوطانها الأولى قبل الصيف. وكلما رأيت محارة جاثمة كالحمامة في القاع نفذت إليها كالسهم والتقطتها بلهفة. أصبحت أعرف حتى دون أن أفتح المحارة ما اذا كانت اللؤلؤة بداخلها بيضاء أو خضراء، من شكل المحارة وحجمها ووضعها، ولكني لا أصدق تخميني، فأفتح المحارة... وأكون صادقاً دائماً.

تبتسم الأسماك لي وتعزّيني، وتعدني بالأخضر في المرة القادمة، فأُتابع بحثي السابح أو سباحتي الباحثة.

وهاهو المقهى أخيراً، الغريب أنّ اسمه هو (بيرلا فيردي). لابد أن صاحبه مهاجر مغربي في ايطاليا.

صافحتها... حاولت أن أكتفي بالمصافحة، لكنها أصرت على تلامُس الخدود. خداها باردان، لكن عينيها طافحتان بالحيوية. تبادلنا الأحاديث الأولى عن الأحوال والجو وبعض المعارف المشتركين... وأخيراً، ولكي أعود إلى بحري الأحمر، طلبت منها أن تحدثني بالتفصيل عن أخبارها منذ التقينا آخر مرة.

عيناها الطافحتان بالحيوية طفرت منهما الحيوية حتى كادت تلفني، فتفاديت بحذر الخبير، وتركتها تتكلم، بينما تسللت أنا خفية إلى هدفي.

كنت ــ دون أن أسمع ـ أرى شفتيها الحمراوين تتحركان كأنما من وراء زجاج، وأنا أغوص عميقا في بحري. تابعت بحثي، وتابعت ثرثرتها الزجاجية العمياء... أقصد الصماء... فجأة رأيت المحارة، ورأتها الأسماك معي فتوقفت. سكن البحر وسكت العالم. كنت موقناً أنها المحارة التي أبحث عنها. اقتلعت من رمل القاع كنزي الغالي. مسحتها، وقلبتها بين كفيّ دون أن أجرؤ على فتحها. كنت موقناً أنها محارة اللؤلؤة الخضراء، ولكني، من اللهفة، لم أفتحها. تدفع اللهفة إلى السرعة عادة، أما لهفتي... (تصور قارئ رواية شيقة يؤجل قراءة الصفحات الأخيرة، أو تصور عاشقين يؤجلان إلى الغد ليلة الدخلة). أطبقت عليها أصابعي وأنا أصعد من القاع. كنت أضغط، حتى آلمتني أصابعي، خشية أن أُفلتها:

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض
على الماء خانته فروج الأصابع

طفوت فوق الماء، وتنفست، فسمعت الصديقة وهي تخاطبني مندهشة:
ـ أين أنت؟ ألا تسمعني؟
ـ أسمعك طبعاً، ولكني أفكر فيما تقولين.
ـ تفكر؟ ما تزال تفكر؟ أمامك خمس دقائق. أريد أن أعرف ردك الآن، كي أرد بدوري على الخطيب المنتظر.

استأذنتها في الذهاب إلى التواليت.... وحين غبت وراء الحاجز، فتحت كفي المعقودة بحرص، ثم.. ثم.. ثم.. فتحت المحارة، فطالعني من داخلها وجه صديقتي العزيزة (العزيزة هنا بمعنى "ذق انك أنت العزيز الكريم"...)، فرميت المحارة من يدي كما تُرمى الجمرة المشتعلة، وخرجت من المقهى أركض كالطريدة في الغابة، عائداً إلى وحشتي العزيزة (العزيزة هنا بمعنى..... بأي معنى؟... بأي معنى...).

الحُزن

1 ـ القفص

إلى ماريو بينيديتي

ـ إفتح لي القفص أرجوك.

وحين أتصنّع فتح قفص غير مرئي من حوله، ينصرف عني إلى أي إنسان آخر قربه قائلا: افتح لي القفص أرجوك.

كان صديقي منذ المدرسة الابتدائية. وكان نابغة في كل المواد. وأخذ البكالوريا بتفوق باهر، ربما كان الأول في الإقليم، أو في المغرب كلّه، لكنه في السنة الأولى من الجامعة، أصيب بلوثة القفص هاته. أصيب أولاً باكتئاب غريب: لم يعد يتابع دراسته، أو يعاشر أحداً أو حتى يتكلّم. صمتٌ شامل عميق مغلق لم يستطع أحد من أهله أو أصدقائه أن ينفذ منه أو أن يعرف بواعثه. ثم تكلم فجأة، وفقط بهذه العبارة الغريبة: (افتح لي القفص أرجوك).

غيّبتني ظروف الدراسة والعمل عن الحي سنوات طويلة. وحين عدت زائرا قبل أيام، علمت بمأساته، فقد تطورت حالة الاكتئاب عنده من القفص إلى الشجرة: كان يتسلق شجرة التوت الكبيرة برأس الدرب، ويبقى فوقها زمنا طويلا هادئا ساكنا لا يصنع شيئا. يقبع فقط بين الأغصان، وعيناه مشدودتان إلى الأعالي، كأنما يسمع موسيقى السماء. ولأنه لم يكن يأكل إلا مضطراً، فقد تضاءل وانكمش حتى صار كالعصفور... إلى أن وجدوه ذات صباح ميتا تحت الشجرة.

وجدوا فقط جثة ضئيلة باردة يابسة.
أما صديقي فكان قد طار...
افتح لي القفص أرجوك.

2 ـ الأمير الحزين

إلى زكرياء تامر

في بداية التكوين، كان هناك أمير حزين. كان أميراً جميلاً يملك الشباب والجمال والمال والسلطة والناس. كانت النجوم تبايعه، والأشجار والحيوانات تبتسم له حين يمر، أمّا الصبايا الجميلات فكن يعبدنه، وكانت إشارة صغيرة من أصبعه الصغير تكفي لكي يقعن ساجدات تحت قدميه.

ولكن الأمير الجميل كان حزينا، وكان سبب حزنه شيئا واحدا، هو أنه لا يوجد شيء يحزنه ، فتضرعت الصبايا، وابتهلت الملائكة، وتوسلت النجوم إلى العلي القدير أن يخلق للأمير الجميل شيئا يحزنه: شيئا يحزنه دون أن يتعسه، يحزنه حزناً نبيلاً يليق بسمُوه، فاستجاب العليّ القدير، وخلق ثلاثة أشياء لم يكن قد خلقها بعدُ: خلق الغروب، وخلق الناي، وخلق اللون الأزرق.

3 ــ اسم الماء

إلى فرجينيا وولف

أهبط في الماء. من كل جهاتي يغمرني الماء. لا سفن ولا بحارة، لا أسماك ولا طحلب، لا شيء سوى الماء. وأنا داخل صندوق زجاجي أبيض شفاف. أرى الماء وأسمع صوتا يصرخ: (أوفيليا... أوفيليا... أوفيليا...) وأنا عارية أنظر من خلف زجاجي. جسمي الأبيض عار وخفيف كالريشة، لكن روحي مثقلة بالأحجار. غادرت ورائي العالمَ، غادرت حتى أزهاري. لم آخذ إلا زهرة واحدة: قلمي. قلمي يزهر يتفتح بين يديّ كعضو ذكورة. يلمسني... يفتح في جسمي حلماً. أحلم أني كاتبة اسمي فرجينيا... أعشق حتى الموت الماءَ ولكن الماء... لا يعشق إلا نفسه. الماءُ الأملسُ

الخائنُ لا يهوى أحدا، لا يبصر من عينيه الزرقاوين سوى عينيه الزرقاوين... وفرجينيا... عشقَت حتى الموت الماء وألقت بهشاشتها في حضن الماء البارد بعد كتابتها للأطفال العشاق القراء الآتين رسالتها: (يا أطفالي.. إبتسموا.. حتى لو لم يحبكم أحد إبتسموا.. حتى لو لم يحبكم الذي تحبونه ابتسموا.. فإذا خلوتم بأنفسكم ليلاً، وبعد أن تطفئ ماما النور وتغلق الباب، فاذرفوا دمعتين من أجلي... دمعتين فقط. دمعتين لؤلؤتين من أجلي، أنا التي سأهبط في الماء الآن لأبحث عن قلب حبيبي: اللؤلؤة التي ضيعت حياتي وأنا أغربل الماء لأظفر بها فلا أحظى من الماء حتى بالماء. ها أنذي أغرق في الماء وأُغرق فيّ الماءَ وأستوحد بالماء فيصبح اسمي الماءَ ويصبح اسم الماء: فرجينيا).

البُكاء

(1)

طفلٌ لم يتعود بعدُ المشيَ، يُنَهنه في مهد مهجور في وسط الشارع، كنـــتُ أُطلّ عليه من فوق السّطح.

لم يَرني. كنتُ أُطلّ عليه وأراه. يبكي، يحسِب أن لم يره أحدٌ، وأراه يصرخ للضوء الأصفر في ليل الشارع، للبرد وللوحدة، ينشج يهتز يكـاد يذوب، ولم يـره أحد يحسِب، لكني كنت أراه. من كان يراني وأنا أحسب أن لم يرني أحدٌ ؟ هل يسمعني أحدٌ ؟

(2)

بعد قليل ستأتي. ستلمس رأسي بيمناها وهي تسألـني: كيف أنـت الآن؟ أحسن؟

كلاّ، لم تأتِ. تخيلتُ فقط. بذرتا دمعتين اهتزتا تحت أرض عينيّ. أغمدتُ الدمعتين، أغمضتُ العينين، وفكّرت في الـحقول وسنـابل القمـح الصّفراء وهي تميس تحت ضوء القمر ونسيم الليل.... وضعت يُمناي على رأسي وسألتُني: كيف أنت الآن؟ أحسن؟

(3)

مسحة واحدة فقط.
أن تأخذ امرأة طرفَ ثوبها
وتمسح عن وجهي هذا العرق
من عينيّ هذا الندى
مسحة واحدة فقط
وأصيرُ مسيحاً.

(4)

في الدقيقة الأولى من عام الفيل، وضعتُ يدي على قلبي، وتمتمتُ: (الحبُّ وهمٌ ... الحب وهم)، فأُنسيتُ الحبَّ فوراً، ولم يعد يملأُ قلبي إلا الوهم... وهمٌ ثقيل ضاغط غامض كالضّباب. وهمٌ ثقيل خاثر كالدّمع. وهمٌ ثقيل يضغط... يضغط... يضغط... يمحوني، وينتصب أمام النّاس مكاني.. أُصبحُ وهماً.

(5)

كانت في المطبخ تحضّر العشاء وهي تتفرج على مسلسل في التلفزيون، بجانبها كان صندوق القمامة يكاد يمتلئ من أوراق الكلينيكس التي كانت تمسح بها دموعها. لماذا كانت تبكي؟ لأنّها تقشّر البصل؟ لأنها تذكرت أمّها المتوفاة قبل شهرين؟ لتأثرها بأحداث

المسلسل التلفزيوني؟ أو لأنّ زوجها لم يعد إلى البيت منذ أسبوع؟ ربما فقط لأنها امرأة بكّاءة، مدمنة بكاء، وإذا لم تبك فالله يعلم ماذا سيحدث لها.

من فوق القصة كنتُ أنا السّارد أرقبها. ماذا أفعل لها؟ ماذا أفعل بها؟

جلستُ قربها، وأجهشتُ بالبكاء. نظرت إليّ وابتسمت. مسحت دموعي بِكُلينيكْسِها وعلقت ساخرة: (سُرّاد اليوم... أنتم تستحقون الشّفقة).

(6)

على المسرح، كانت المُمثّلة تبكي. كنّا نعرف، نحن المتفرجين، أنّها تمثّل... وتمثّل دور امرأة تمثل على زوجها دور المرأة المظلومة، تمثل أنها تمثّل أنها تبكي. لكنها استرسلت في البكاء طويلاً. كان جسمها كلّه يهتز كالورقة. سقطت على الأرض، وانخرطت في بكاء هستيري.

الممثّل أمامها وقف مشدوهاً، ولم يعرف ماذا عليه أن يفعل. كان ينظر إلى الممثلة وإلينا وإلى الكواليس... والمرأة لا تتوقف. هل تذكّرت أحزانها الخاصة، ونسيت أنها تمثل؟ ربما كان الموقف الدرامي أكبر منها:

تمثّل، وتمثّل أنها تمثّل. ربما جرّت الدموع المصطنعة الدموع الحقيقية. وربما كان قلبها يتفرج على جسدها فتأثر بالدور. ربما. لكننا، نحن المتفرجين، تأثرنا فعلاً، وانطلقنا فجأة في عاصفة من التصفيق الحار. هل كنا نصفق للحقيقة في الفن؟ أو للفن في الحقيقة؟

(7)

عينان فقط، هما كل ما في اللوحة. عينا امرأة قطعا. من كل عين تسقط دمعة، حوض الدمعة مكتنز وعنقها دقيق، وفي داخل العينين جنينا دمعتين أخريين.

الحضور احتشدوا أمام اللّوحة، وبعضهم اغرورقت عيناه. هل البكاءُ مُعْدٌ؟

إتجهتُ إلى الفنانة الواقفة بجانب اللوحة وهي تبتسم في خجل وتواضع، قلت لها:

ــ اللوحة للبيع؟

ــ لا... للعرض فقط.

ــ لماذا لا تبيعينها؟

ــ أنا متعلقة بها. لا أستطيع فراقها.

تأملت اللوحة والفنانة معا. قلت لها:

ــ العينان في اللوحة ..... عيناك؟

ــ نعم. وعيناكَ أيضاً، وعينا كل إنسان.

ــ لماذا البكاء إذن؟

ــ إنه سؤال أكبر منّي. لا أستطيع الإجابة عنه.
ــ وأنا لم أطرحه لتجيبي عنه. طرحته للتّأمل فقط.
ــ أنا تأملت وأنا أرسم. هو دورك الآن... فتأمل.

الحب

يداي ممدودتان. أنا كلي يدان... تمتدان إليك ياحبيبي، وتحيطان بك وترعيانك. أنا عشّك الذي يُكنك حيث تكون ياحبيبي. عشّك الذي تطير منه وتطير فيه... ثم تطير إليه. أنظر إليّ يا حبيبي. ما أزال جميلةً كما عرفتني... خفيفة ورشيقة. زهرة أكون في الصباح تفوح لك، وشجرة أعود في وسط النهار تُظللك، ثم أصير في الليل موسيقى... تدوزن أنغامك وتعزفك.

لكنني في كل ذلك يدان... يدان من زهر ومن شجر وموسيقى... يدان تمتدان إليك وتتقرّيان ملامحك. شعرُك الأكرت كعشب متوحش، أتسكع فيه وأضل وأختفي كمارقة... كآبقة... كسارقة. جبينُك المعرورق أمسحه وأرش عليه ماء الورد وأُربّت عليه حتى تبتسم عيناك. أغمضهما لأراك. حين أراهما مفتوحتين أغرق فيهما ولا أرى شيئاً. عيناك بحيرتان أفريقيتان مترعتان بالأساطير. وأنا أغمضهما وأتابع التقرّي... باللمس أراك ياحبيبي. ألا تحس بي؟ أنا أمُرّ... أتمرّر على بشرتك كلّ يوم كريح الصبا... خفيفة رُخاء تهَب ولا تهُبّ. ولكنك تكبر بسرعة ياحبيبي. لماذا أنت هكذا دائماً؟ متهور طائش مستعجل ثائر؟ كأن لك موعدا مع القدر تخشى أن تخلفه، فتعيش بالعرض لا

بالطول، وتُغرق أيامك في الخمر والحشيش، وفي السفر والتجوال، وفي... في النّساء. هل تريد أن تنساني؟ هيهات ياحبيبي... حتى لو تزوّجت عشراً وصاحبت خمسين أو مائة... فسأبقى في قلبك دائماً. أنا كُرة خضراء في دمك ياحبيبي لا تموت ولا تبلى حتى تموت أنت، فتتذرّر فيك، وتخصب تربتك لتنبت سنابل القمح التي تعشقها:

"أحب الورد لكنّي
أحب القمح أكثر"

ألا تزال تردد هذا المقطع الشعري؟ لماذا تكبر بسرعة إذن وتبتعد عنّي؟ أنا ما أزال جميلة كما عرفتني. لا أكبر ولا أذبل لأني خارج الزمن. أتفتح كل صباح لك، وأضوع في خيالك. ما أزال صبية ألعب على الثلج كشادي فيروز. هل تذكر شادي؟ قل لي ياحبيبي، ألا تزال تحب الأطفال؟ لا تكبر إذن ولا تتزوج لتلدهم. الأطفال كالأزهار ياحبيبي، من يحبهم لا يلدهم، ومن يحب الأزهار لا يقطفها. من يحب الموسيقى لا يشتريها. يستمع إليها ويستمتع بها، ثم يذهب ليعيش مع أصدائها. الحب ذكرى ياحبيبي. بالذاكرة نعيش. وحين نموت، ففي الذكرة نخلد.

ولكنك تكبر بسرعة ياحبيبي. شعرك يتساقط، وأسنانك تتخلع، ومفاصلك تكسل. أين الفتى الجميل الذي عرفته وأحببته؟ لم يبق منه إلا صورة عجوز تبهت ملامحها وتتجعد وتضعف كل يوم. أنا كنت أحبك أنت لا هذه الصورة العجوز. كنت أحب إنساناً من لحم ودم، لا شخصية متخيّلة باردة في قصّة انجليزية. هل تريد أن تلحق بي بسرعة؟ أيها الأحمق، أنا أريدك هناك. أريدك فتياً نضراً كما كنت دائماً: تنظر في الصباح إلى السماء الزرقاء، وإلى السُّحب البيضاء... إلى السنابل والشياه والغابات... وإلى الأفق الغامز الغاوي. وتنام، حين تنام، في حضن الجمال الحي والليل المقمر والموسيقى. وحولك الحركة والحياة في كل حين.

ماذا تنشد هنا ياحبيبي؟ ليس هنا إلا الظّلام والبرد والوحشة والآه... آه ياحبيبي... لقد كذبت عليك، فاغفر لي. أنا لم أعد جميلة كما كنت، ولا صبية، ولا زهرة فواحة، ولا حتى صورة عجوزاً تهرم كل صباح... ولا يدين لي. أنا مجرد ذرات تراب باردة في قبر. وليس عندي حتى مرآة لأُبصر فيها عدمي.

اِبق هناك يا حبيبي... اِبق هناك. صِر عجوزاً إذا شئت، لكن... لا تمت.

الفرح

أحسست، وأنا أفيق هذا الصباح، بفرح غامر لم أعرف مصدره. ربما كان حلما جميلا ترك أثره في نفسي قبل أن يتلاشى. أو ربما كان فرحا قديما استثاره في دمي حافز خارجي: رائحة شممتها، أو لون رأيته أو صوت سمعته. أو ربـــما... لا يهـــم السبب. المهم أن الفرح غمرني، وطبع نهاري كلّه بالخفة والنشوة، وبنهم الى مباهج الحياة جعلني ألتهم أنفاس الهواء، وأعُبّ أضواء الشمس كما لوكنت لم أولد إلا هذا الصباح. عجزت جميع منغصات النهار عن أن تخترق زجاج الفرح الذي غلفني، وعجزت جميع تأويـــلاتي عن الوصول إلى السبب الحقيقي لهذا الفرح.

وحين رحت إلى البيت في المساء، كان الفرح المجهول قد استنفد كل طاقاتي. منهـــكاً كنت وتعباً، لكنه ذلك التعب اللذيذ الخامل المسترخي. كأنني ثمل بخمرة لم أشربها، بل شربتـــني هي. آخر قطرة من قوتي نزحها الفرح فأمسيت فارغاً. تماسكت وأنا أسير مترنحا حتى غرفة النوم. وحين رأيت سريري، ذاب تماسكي وانهـــرتُ. سقطت على الأرض الصلبة، فتكسرت شظايا،

الشظية الأولى:

أوقفت البحث مع أول نغمة سمعتها، كنت أبحث في الراديو عن موسيقى هادئة تصاحبني وأنا أقرأ في ديوان شعر قبل أن أنام. لماذا أوقفت البحث؟ بل لماذا أغلقت ديوان الشعر وأغمضت عيني؟ لأتفرغ للاستماع/الاستمتاع؟ لماذا؟ ما الذي في هذه النغمة الأولى استوقفني؟

كانت النغمة عزفا على كمان. عزف هادئ بطيء صامت، أعني بصامت أنه لا يصاحبه غناء، ولا يصاحب الكمان آلات أخرى، ولا يشوش على السماع أي (خرششة) خارجية، فضلا عن أن العازف متمكن كما يبدو... كل هذا ولم أدخل بعد الى الموسيقى.

حين انقطعت عن العالم الخارجي، وأخذت أتوغل في غابة الموسيقى... ـ كانت غابة فعلا، فقد خلفت وراني وأنا أدخلها ضوء الشمس وصخب الناس وتعقيدات الحياة الاجتماعية، واستقبلت الظلام والصمت والغموض والمغامرة والخوف والدهشة والفرح ـ حين تتابعت النغمات القطرات ثم الزخات ... اهتزت نفسي وربت، ثم اتسعت ورحبت، ثم هفت وصبت. وخلال ذلك كله، كانت نغمة (مركب نغمات متسق معين... لازمة عذبة) تتكرر بين الفينة والأخرى في تضاعيف الموسيقى. لم أعرها اهتماماً خاصاً حين سمعتها لأول وهلة، لكني انتبهت في

المرة الثانية، ثم ابتسمت دون أن أشعر وأنا أسمعها للمرة الثالثة، ابتسام التعرف على صديق قديم. كانت اللازمة في البداية تتكرر عزفاً على الكمان فقط، ثم حين تصَاعدت الموسيقى، بانخراط الآلات الأخرى في العزف، اتسعت اللازمة وتركبت وتسامـــــت... والصديق القديم الشاب أمسى شيخاً يمتلك المعرفة والتجربة والخبرة والمهارة، لكنه يوحـــي كذلك بالشجن أو بالأسى أو بالمرارة

ليت الحوادث أعطتني الذي أخذت
مني بحلمي الذي أبقت وتجريبي

استولت اللازمة المترددة بين الحين والآخر، وهي تزداد تركيباً واتساعاً وتسامياً، على كـل وجداني، ورشحت على سطح جسمي ابتساماً في الفم وندى في العينين ظلاّ يرسمان اللحظة زمناً حتى بعد انتهاء الموسيقى.

لم أحاول معرفة الإذاعة أو معرفة الموسيقى. أحببت أن تبقى مجهولة، وأن تبقى في دمي وذاكرتي تومض/ تنبض حتى دون أن أشعر بها، لأني أعرف أنها هناك... كالثمالة في قرارة كأس حياتي.

حين أموت، وخلال الاحتضار، سأتذكرها بفرح، لأنها الشهادة على أنني قد عشت.

الشظية الثانية:

كنت قد عدت من المدينة في عطلة الصيف، فرِحاً بنجاحي، وفرِحاً بالعودة إلى الدوار، وجاء الجيران ليسلموا ويهنئوا، وخلال تبادل السلام، سلمت عليّ إحدى فتياتـــهم (لا أتذكر اسمها الآن، لكنها كانت من أترابي، لعبت معها ونحن صغار... لاحظت أنها أصبحت أجمل، وأن أنوثتها بدأت تتفتح). وبدلا من السلام العادي، وضعت يديها على كتفي، وقبلتني على فمي. كانت ـ ربما ـــ أول قبلة في حياتي. ولذلك ـ ربما ـ ظلت الشفتان المراهقتان النديتان في ذاكرة فمي الى الآن. هل ما تزال حية؟ وأين هي؟ وماذا فعل الزمان بها؟

في كل الأحوال، نضر الله وجهها العزيز نضارة لا تزول بما منحتني ـــ خلال لحظة عابرة ـــ من الفرح السرمدي الذي لم ولن يزول حتى أزول.

الشظية الثالثة:

كان عمي يحكي لنا كل ليلة خرافة من خرافاته المُمتعة، لكن حين بدأنا نتعلم الحروف في الكتّاب، قال لنا:

ـ تعلّموا في النهار (قْراية الجّامع)، وفي الليل أعلمكم (قْراية المَرْجة).
ـ ما هي (قراية المرجة) هذه؟
ـ هي (قراية) يقرأها الجن ليلا في مرجات المياه.

وهكذا تعرفت على أول قصيدة شعر في حياتي. كانت قصيدة مرتبة الأبيات على الحروف الهجائية، بحيث يبدأ البيت الأول بحرف الألف، والثاني بالباء والثالث بالتاء... الخ. لم أعد أتذكر من القصيدة الا الأبيات الثلاثة الأولى:

أصابني حب الهوى، ولم نجد له دوا، إلا الفؤاد قد كوى، من حب الريم المغنـــاج

بهاؤها حسن جميل، ولم نجد له مثيل، في ذا الزمان الا قليل، في جيلنا أو الماجي

تبارك الله تعال، سبحانه عز وجل، خلقت من رهط الغزال، بنت الأمير الصنهاجي.

رحمك الله ياعمي العزيز، لابد أنك في الجنة الآن، بما قدمته من الفرح لأطفال العائلة، أتمنى أن تلقى هناك أميرة صنهاجية تؤنس وحدتك، وتحكي لك/ تصنع معك الخرافات فـي ليـــل الجنة الأخضر.

شظايا أخرى:

ـ الكتب التي قرأت.
ـ الحيوانات التي عرفتها وأنا طفل.
ـ الأربعاءات التي كنا نتحرر في عشاياها من الكُتّاب.
ـ رؤية البحر أول مرة.
ـ ابتسامة مازن أصغر أطفال العائلة.
ـ كأس شربتها في خيالي وأنا أقرأ بيت الأعشى:

وكأس شربت على لذة
وأخرى تداويت منها بها

ـ زَهْرة

ثم ما لا ينتهي أو يحد من ذرات الشظايا التي تتطاير في فضاء ذاكرتي كذرات الهباء المحيطة بنا والتي لا يبدو منها لأعيننا إلا ما يضيئه شعاع الشمس الممتد من النافذة. فأين أجد الشعاع اللغوي الذي يكشف هذه الذرات؟

هل كان الفرح الذي غمرني هذا الصباح واحداً من هذه الأفراح؟ كلها؟ أو هو فرح قادم شِمْتُهُ كما يشيم الأعراب المطر في هجير القائلة؟

ربما لم يكن فرحي... ربما كان فرح المحيطين بي، والفرحُ كالحزن يُعدي.

قد لا يكون فرحا بالمرة... قد يكون مجرد حلم... حلم بالرّحم مثلا... حيث الفرح الحقيقي للانسان... الفرح الذي ترمز إليه الجنّة في الدين، والجمال في الفن، والحب في الحياة... قد.

الصمت

(1)

دخلتُ وأغلقت الباب ورائي
أشعلت الضوء، وتلفتّ
الكرسي الفارغ
وسريري البارد
والصرصار الأسود
والصّمت.

(2)

لا تقولي شيئا

أخشى أن يقطع صوتك حبل الصمت الرابط بين مشاعرنا

.....
هذا الحبل البارد يجرح روحي
أرجوك..... قولي شيئا

(3)

شفتاك الصامتتان تقولان:
لا تقترب..... لا تبتعد.... لا....
وأنا أحلم أنهما ترتجفان كشفتي مولي بلوم
وتقولان: نعم
وتقولان: نعم
وتقولان: نعم.

(4)

هل أنت تناديني؟
لو حتى في الحلم سمعتُ نداءك هذا الخافتَ وحدي
لبيتُ بأسرع من صوت نعم
لكني لا أسمع حتى في الحلم سوى الصمت
وحده
وحدي.

(5)

(كل ضجيج العالم قطرة. في قاع الصمت الكوني الشامل) قالت
قلت لها:
(أنت القطرة
وسأشربها)
بعد دقيقة، عَمَّ الصمت العالم.

(6)

في منتصف الليل، وأنا أقرأ في كتاب (داغستان بلدي) لرسول حمزاتوف، وجدت القصيدة التالية:

" ـ أيتها العصافير
مالك صامتة منذ الفجر؟
ـ المطر يهطل. ونحن نسمع صوته "
أغلقت كتاب داغستان، وأنصتّ
كان الصمت يهطل... وأنا أسمع صوته.

(7)

دخلتُ وأغلقت الباب ورائي
أشعلت الضوء فلم يُشعل
وتلمّستُ فلم أجد الكرسي الفارغ
سريري البارِدُ لم
والصرصار الأسود لم
لم.. لم.. لم
لم أر حولي، في خوف ظلامي،
إلا الصمت.

الظل

(1)

نزلتُ في مفترق الطرق (لم أقُل: ملتقى، لأننا سننزح عن هذه النقطة فوراً: الحافلة عائدة من حيث أتت، فهذه النقطة هي منتهى مسارها، وأنا إلى حيث قدر لي، كأنما حدث لي هذا من قبل، منذ زمن طويل ربما، ماذا يسمي علماء النفس هذه الحالة؟).

الجو بارد والشمس لم تشرق بعد. الطرق أمامي ــ إذا استبعدت طريق الحافلة ــ ثلاث: "ستنتهي في إحداها إلى شيخ حكيم - تقول آية -

لا فائدة من محاولة دفعه الى الكلام، فهو صامت دائما وتلك حكمته، لكنك تستطيع أن تسأله وأن تجيب نفسك بعدّة أجوبة، فإذا رأيته يبتسم بعد جواب من أجوبتك، فذلك يعني أنه يــوافق عليه. اسأله عن الملكة، وسيجيبك بطريقته.

وستنتهي في طريق أخرى إلى غانية حسناء. ستحاول أن تغويك بكل الطرق، إذا استجبت لها انتهيت. حاول أن تكون شيخا حكيما لا يزل ولا يهم. إذا انتصرت كشــفتها، واذا كشــفتها ملكتها، فهي

ليست في الحقيقة الا جنيا مرصودا للكاظمين الرغبة والعازفين عن النساء. اسأله عن الملكة، وسيحملك إليها قبل أن يرتد إليك طرفك.

وستنتهي في الطريق الثالثة إلى صحراء مهلكة غفل لا معلم فيها. لا جبل ولا كثيب ولا شجرة ولا نبتة ولا طائر ولا حتى حشرة. لا فائدة من محاولة الاهتداء. تلفع بعباءتك واجلس على الرمل حتى ياتيك اليقين. سيأتي هذا اليقين بعد سبع. قد تكون دقائق أو ليالي أو أسابيع. لا تخف، لن تموت قبل أن ياتيك اليقين. قد يكون هذا اليقين دليلا بدويا أو سيارة أجرة أو حملا أبيض... لا تخف، أيا كان هذا اليقين ، سيقودك الى الملكة" .

(2)

الملكة؟ المرأة التي ظلت تتردد في حلمي أربعين سنة، في كل أسبوع مرة على الأقل. وجهها محفور في كل قطرة من دمي. ألفته حتى لقد أتحدث معه دون أن أراه، وأتقرى ملامحه في وجوه الناس، فاذا وجدتها أو تخيلت أنني وجدتها، صادقت أصحابها وأحببتهم وأدمنت عشرتهم... وبهذه الطريقة لقيت " آية "، المرأة الشوافة التي وقفت أمامها بساحة جامع الفنا ذات صباح من أصباح الربيع الفائت. ولكي أهرب من ورطة وقوفي أمامها مسمرا كالمسحور، ومن تفرسي

(المزعج؟ الغريب؟ الغبي؟) في وجهها الذي اكتشفت فيه الكثير من ملامح حلمي، رميت "بياضي"، وقرفصت أمامها. نشرت على الأرض أوراق اللّعب، وبدأت تتفقد صورها بأصابعها المحناة.

"ما عدكش ما خصكش" قالت لي. هذه هي النتيجة المختصرة لقراءتها في "مكتوبي". " يمكن ما عديش، لكن خاصني شي حاجة " .

ظللت أتردد عليها باستمرار إلى أن حدثتها عن حلمي، وعن الشّبه الغريب بين الوجه الذي أراه في الحلم، وبين وجهها هي، وهو شبه غريب لأنّه ليس كاملاً ولا حتى محدداً في ملمح بعينه: هل هو الفم أو العينان أو الجبين أو العنق أو ما يبدو من الشعر؟ شبه غامض يقدح الذكرى ويغيب. لماذا؟ وكيف؟

إبتسمَت "آية" ابتسامة حزينة: افترّ فمها عن أسنانها، لكن عينيها كانتا شاردتين.... وقالت أخيرا:
ــ انها الملكة. وهي تدعوك.
ــ أية ملكة؟ وتدعوني الى أين؟
ــ ليس مأذونا لي أن أتحدث عنها. اذهب اليها، وهي ستجيبك عن أسئلتك.
ــ أذهب إليها فورا. لكن أين؟ وكيف؟

أرشدتني إلى موقف الحافلة وساعة خروجها ومكان النزول. وحين سألتها عن الشبه بينها وبين المرأة التي تسميها "الملكة"، ابتسمت ابتسامتها الحزينة وقالت في شرود:
ــ سلم لي عليها. قل لها: آية من آيات حضورك في عالم الشهادة.

(3)

نزلت من الحافلة في مفترق الطرق... لم أتردد طويلاً، اتجهت إلى الشرق، أعطيت وجهي للشمس البازغة، وغادرت ورائي العالم والماضي والنّاس.

كانت الشمس تتجه نحوي فيما كنت أتوجه نحوها، وكلما تقاربنا كلّما ازدادت حرارة الجو وثقل الملابس وصبيب العرق وتعب المفاصل... فلمّا انتعلتني الشمس الحافية، وصارت فوق رأسي تماما، لم أعد أستطيع التقدم... فوقفت. تلفتّ حولي، فلم أر على طول مد البصر بناءً ولا شجرة ولا حيواناً ولا حتى طائراً. لم أر غير رمال الصحراء وأشعة الشمس وغمزات السراب. وضعت بعض ثيابي فوق رأسي وتهالكت على الرمل أخط وأمحو الخط ثم أعيده باصبعي على الرمل، وذهني شارد يفكر في الماء... ليس في الماء بالضبط، بل في الكأس... في زجاج الكأس، أحس

ملمسه البارد الندي في مسام كفي، ولا أستعجل الشرب. أريد فقط أن أستديم هذا الملمس وأستشعره بكل حواسي أطول ما يمكن من الزمن... الزمن القديم المستعاد المستعذب... المست...عذاب. فذلك العذاب القديم هو الذي أوصلني الى هذا الرمل المحترق الحارق الآن.

وفيما أنا أذوب بجسدي تحت وقدة الحر وأشرد بعقلي في الزمن القديم حائرا بين عذوبته وعذابه، أحسست برطوبة عجيبة تلمسني... تلمس خدي اللاهب فتشيع في جسمي كله نسمات الغروب... تلفتّ حولي فوجدته واقفاً بجانبي، ينظر إلي ويلامس خدي المخشوشن بشفتيه الرطبتين، كأنما يحاول أن يرعى شعره النابت.

كان حملاً أبيض جميلاً، كأنّه غزال... كأنّه؟ لا كأنّ له. جميل إلى حد يفوق الوصف والتشبيه. تراه ولا تصدق أنك تراه... كأنه حيوان حلم. خشيت أن أمد يدي اليه فأفيق. ولكنه أعاد حك فمه الرطب بخدي الجاف المخشوشن، فمددت يدي، ولكنه كان قد ابتعد... كان يسير أمامي على مهل ، فتبعته.

وهو يسير، كانت الأرض تنشق أمامه عن سرداب طويل، دخلت وراءه السرداب حتى غبنا تحت الأرض، لم أعد أرى شيئا في ظلام النفق الرطب البارد إلا لون الحمل الأبيض أمامي، فجأة تكشف الظلام عن ساحة

مضيئة واسعة تتوسطها حديقة خضراء، والحمل الصـــغـــير الأبيض الذي كان أمامي، أصبح فجأة امرأة جميلة تستريح على أريكة حمراء. هي؟ هي.

مدت يدها إلي وبغمت:
ـ تعال. اقعد بجانبي

هي تماماً. ابتسامتها مهيبة. كأنّما، وهي تجذب جسد الناظر (من الجاذبية)، تجذب روحـــه (من الجذبة) فيرتبك ولا يدري أهو في حضور الجميل أم في حضرة الجليل.

ـ أنت تبحث عني؟ أنا الملكة
صحوت، ولم أكد، مما بي، وقلت:

ـ أجل ياسيدتي. لكنني أبحث عنك لأنك تبحثين عني. منذ بلغت الحلم وأنت تناديننني في أحلامي. وسواء كان ما أراه الآن حلما أو حقيقة، فانني ألبي الدعوة، وأضع نفسي تحت تصرفك.

ركعت تحت قدميها شامخ القلب، فخورا بالخضوع للجمال الجليل. كنت مغمض العينين أنظر إلى صورتها المنطبعة في وجداني، لكني شعرت بأناملها الناعمة تربّت على رأسي... على كتفي... بسبابتها تحت ذقني، وهي ترفع وجهي القانت إلى سدتها...

سدرتها.. إلى وجهها الحي المختلج المبتسم، وسمعت صوتها القدوس يخاطبني أنا:

ـ هل تعرف من...ما أنا؟
ـ أنت الملكة.
ـ هذا اسمي الرمزي. اسمي الحقيقي هو (الظل). أنا جزؤك الليلي. (توأمك) الـــذي ينتظرك بالأفق الأعلى ليتحد بك. هل ترغب فيّ؟ هل تقبل أن تلبسني؟
ـ كيف؟
ـ لننه الأمر بسرعة. قبّلني

وانحنت علي كما تنحني السماء في الشتاء. أسلمت شفتي العطشاوين عطش المسعور (يريد، ويخاف الماء)، إلى شفتيها الحافتين (قوسي حياتي). وكان ما كان مما لست أذكره، لأني لم أعد أشعر بشيء.

الشك

1 ـ بعضي على بعضي:

(لا تحدق إلى الطريق. اسلكها) يقول بيسوا، لكنني أحدق فقط، ولا أسلك أي طريق. أحدق من نافذتي على خارطة الطرق المتشابكة على مد البصر... وأبتسم. لا أبتسم لأني أعرف، أو لأني أجهل... أبتسم لأني أشك. والدودة تقرضني من الداخل كما يقرض الليل النهار... كما يقرض النهار الليل... كما يقرض أي شيء أي شيء... ولا أنقرض. كانت البداية حين... حين اشتهيت الثدي فمُنعت؟ حين مددت يدي الصغيرة إلى الجمرة فرُدعت؟ عندما رفضت أكل البطاطس فأُجبرت؟ أو عندما رفضت الذهاب إلى الجامع فساقوني عنوة كخروف العيد؟

متى كانت البداية؟ لا أدري... لعلها كانت مذ كنت؟ لعلها.

لكنني أعرف المسار: في الخامسة عشرة من عمري تزوجت جنيّة. كانت تسكن مع عائلتها في مرجة الماء. اختطفتني ذات ليلة وأنا عائد بالماشية من المرعى. أهملت الغنم وسعيت كالمذهول وراء ضوء أصفر شديد اللمعان في وسط المرجة المدهامّة تحت أقدام الليل الزاحف... وها أنا الآن أبوس القدم، وأبدي الندم،

عاللّي عملتو، في حق الغنم. وفي حقي أنا في حياة مستقرة هادئة لا قارض فيها ولا مقروض. عشقتني لعنها الله فخيرتني بين أن أتزوجها وبين أن تمسخني خروفا يبعبع للذئب عند كل غروب... فتزوجتها. وكانت الشّقة هي جسدي. دخلته اللعينة كما دخل طارق الأندلس... آه يا أندلسي... يا خلسة المختلس. ظللت أعيش بين أهلي ساكناً وأنا مسكون. لي حياتان ولهم واحدة... شيء خصصت به من بينهم وحدي. خصصت به؟ قل ضربت به... بُليت به... شقيت به

أُفضّي نهاري بالحديث وبالمنى
ويجمعني والهمَّ بالليل جـــامع

فيا جامع الهمّ والليل والنّاس فرّقني... أو فاجمعني لا فرق. سأظل دائما كما أنا: المجموع المتفرق السّاكن المسكون الثابت القلق الواحدالإثنان...

ثم تمكّنَت واستبدَّت فأغلقتني عليّ. لم تدع بعضي الداخل يخرج ولا بعضي الخارج يدخل... شقّت برزخا بين عذبي وأُجاجي وبَغَت... لكني كنت أنا العذب أنا الأجاج.. وكنت أنا البرزخ.. والجنيةَ أيضا كنتُ.. وأزعم أني واحد وفيّ انطوى العشرات من الواحدين... فيا أيها الملاك الحاسب قل لي كم أنا؟ قال الملاك: كثير. ثم عرج إلى السماء وتركني مكدساً

متراكماً في قصعة العالم كحبات الكسكس... بعضي جِن وبعضي إنس، هل أنا الثقلان؟ كنت من نفسي المكتظة في جيش بل في جيشين متحاربين يقتل بعضي بعضي ويبكي بعضي على بعضي معي. وفي النهاية. وبعد أن سئمَت نشوزي طلّقتني... وخلّفت بين ذراعي طفلها الرضيع الذي يصرخ باستمرار وهو يشير بسبابته الصغيرة إلى العالم... شاكياً؟ محذراً؟ متهماً؟ ساخراً؟ .. طفلاً سميناه (الشك) لأننا لا ندري من أين جاء... فأنا والجنية عقيمان.

2 ـ يجلس في الصف الأخير ويبتسم:

دخلت المدرسة متأخراً وأنا متزوج، لكني كنت قد قرأت كتبا كثيرة من قبل. وكان كتابي الأثير الذي لا يفارقني هو سيرة أينشتاين. كنت أحلم بأن أكون عالماً مثله. وحين قرأت في سيرته: (هذا الاحتقار للسلطة لم يحبِّبه إلى معلميه الألمان بالمدرسة، ونتيجة لذلك أعلن أحد مدرسيه أن وقاحته جعلته شخصاً غير مرغوب فيه داخل الفصل. وعندما أصرّ أينشتاين على أنه لم يرتكب أية مخالفة، رد المعلم: هذا حقيقي، لكنك تجلس في الصف الأخير وتبتسم... وهذا يُفسد احترام الفصل لي).

حين قرأت ذلك، نفذته على الفور: أخذت اجلس في الصف الأخير و... أبتسم. والمعلمون يغتاظون...

يراجعون معلوماتهم، ويتأكدون منها... ويتكلمون بثقة وحزم... وأنا أسمع وأبتسم. لم أكن أبتسم لأني أعرف... ولا لأني أجهل. كنت أبتسم لأني ... لم أكن أنا الذي يبتسم في الحقيقة... الطفل الذي أربيه (يربيني) في داخلي... هو الذي كان يبتسم... ساخراً من المعلمين، ومن العلم، ومن العالم... ومني... ومن أينشتاين. الطفل الذي أكرهه طوراً وطوراً أحبه... الذي أقمطه ـ أخال ـ وأرضعه من جوعي ومن عطشي، ومن سهري أرعى النجوم ولا أؤوب. الطفل الذي (يُشحّر) المعلومة حتى تحترق فأرميها في القمامة... ويُسخّر المعرفة سُخرة حتى تسقط من التعب وتنفق كحيوان مذعور... الطفل الذي لا يكبر ولا يصغر، لا يكره ولا يعشق، والذي لا يحفظ ولا يمتثل ولا ينقل ولا ينتقل ولا ينجح ولا يرسب ولا يشتم ولا يُدهن ولا... الطفل الذي كان فقط يجلس في الصف الأخير و... يبتسم.

3 ـ الشك شوكة... الشك وردة:

(الشك لا يريحني، لكن اليقين يضحكني)
- فولتير -

وأنا أيضا أضحك من هذا اليقين الذي يحيط بي إحاطة فم طفل بحَلَمة، ويمتصني دون أن أشعر كثقب أسود. هل أنا إنسان شكّاك؟ لا أدري... ربما... يستطيع

الإنسان أن يعرف هل هو صالح أو طالح... يميني أو يساري... ملحد أو مؤمن... الخ... لكنه لا يستطيع أن يعرف هل يشك أو لا. لأن المعرفة بطبيعتها تقع على اليقين لا على الشك. موضوعها هو الحقيقة. أما الشّك فلا معرفة له ولا حقيقة، لذلك لا أعرف هل أنا شاك فعلا... وعلى أي حال، ربما كان هذا (انعدام المعرفة) دليلاً دقيقاً وعميقاً على وجود الشك. كأن الشك يقول: (أنا مجهول، إذن أنا موجود)... لكني أعرف الشك. الشك فتاة جميلة اسمها وردة... وجدتها في منتصف الليل على محطة الطاكسيات... وحيدة وأنا وحيد. لا بشر ولا طاكسيات. بعد السلام والحديث عن الجو، وعن الطاكسيات الغائبة...اسمها؟ وردة. اسمي؟ خجلت من اسمي فغيرته. هل اسمها وردة فعلا؟ عرضت عليها أن تذهب معي... فمسكني قريب، ولا عائلة لي. عرضت عليها الحماية والأمان... تبيت في حفظ الله... وفي الصباح أرافقها إلى محطة الطاكسيات. ما رأيها؟ ورأيها أن أذهب أنا معها.. أُوصلها إلى بيتها، وأعود إذا شئت أو أبيت في بيتها. ليس معها في البيت إلا ابن عم معاق... ألن يعترض على وجود رجل غريب في البيت؟ كلا لن يعترض. هو مُقعد ومريض، وهي ترعاه حتى تخرج التحاليل التي أجراها.. ويعطيه الطبيب وصفة الدواء، لتعيده إلى العروبية. هل يذهب معها؟ وإذا كان في بيتها أبناء عم لا ابن عم واحد؟ وإذا كان ابن العم صحيحا ينتظر بشلاغمه في البيت ضحية

اليوم؟ وإذا كان ينتظرنا في الطريق أفراد العصابة الآخرون؟ وإذا كانت مصابة بالسيدا؟ وإذا كانت جنيّة؟ نظرت إلى قدميها فرابني حذاؤها الغريب. هل بداخله أظلاف؟ هل هي الجنية إياها تلعب معي لعبة الغميضة (هانا موراك، هانا قدامك). انتعلت شكي و... جريت... جرية واحدة دون أن ألتفت ورائي... اجر أورفيوس... اجر... ولا تلتفت وراءك. وردة كبة شوك إذا التفتَّ التفّت عليك. قالّك وردة... وردة حمراء ك... كالدهان... كالدم... كهذه الليلة بطاكسياتها الحمراء الغائبة وقمرها الأحمر الحاضر وهو يبتسم ساخرا كالمتواطئ، أو مندهشا كالكاشف الفاضح، أو مشفقا حنونا كالمتأسف الراثي... اجر أورفيوس... اجر. اجر أورفيوس... اجر...

4ـ العنكبوت:

(ماذا يعرف العنكبوت عن موزار؟ لا شيء. والعنكبوت مع ذلك يصغي إلى موسيقى موزار مسرورا)

- ماشادو دو أسيس -

وأنا ذلك العنكبوت. لا أعرف شيئا في الموسيقى، لكنني أصغي إليها بسرور. هل سبق لي أن قلت إن الحقيقة الوحيدة في العالم هي الشك؟ كلا الحقيقة الوحيدة هي الموسيقى. يمكن أن تشك في كل شيء

في هذا العالم إلا الموسيقى. إنها وجود غامر كالبحر حول السمكة أو كالسماء حول الطائر أو كالرغبة في (نغاشيش) العاشق... غامر غامض ضاغط هابط... لكنه مُغر ساحر وفاتن. والأهم أنه حقيقي. حقيقي لأنه يحركك... يحررك. تحس أنك تنمو من الداخل وتتسع وتفيض حتى تحتوي الكون كله. أنت الكون تحس. وتزعم أنك محدود وفيك تتكوكب الأكوان سبحان مكوكبها: الموسيقى... لكنها تضيع ويعقبها الصمت. لكنك تشرد عنها وتضيع حتى تضل فلا تنشدك. لكنها توهمك بالنسق في الفوضى، وبالجمال في البشاعة، والسعادة التي هي مجرد عادة. الموسيقى تكذب. الحقيقة الأولى هي أن لا حقيقة في العالم... إذا كان العالم موجودا. والحقيقة الأخيرة هي أن الموسيقى تعنكب الأكوان. وأنا لست عنكبوتاً. هل أنا عنكبوت؟

الكهف

عيناها خضراوان.

عيناها خضراوان. الخضرة فيهما صافية نَدية كأنهما من عشب ممطور. وباسمتان دائماً، حتى حين تكون حزينـة. الأخضـر لا يحـزن. أو يحزن حزنا أخضر باسماً هادئاً كأنه فرح مرسوم.

اللوزتان الخضراوان تنظران إليّ ولا تريان منّي شيئاً. كأنّما تنظران خلالي إلى ما ورائي. هل أنا شفاف إلى هذا الحد؟ وتحتهما ذلك الأنـف الأُنـف. أُنفٌ ككـأس يشربها صوفي في جنة الشطح لم يشربها إنس قبله ولا جـان. أنف يَعسوب يعصر من عشب العينين الأخضر عسل الشفتين الأحمر ويدعوني، فأحسّ ــ ولم أذقه ــ حلاوة كحلاوة الروح: حياة على شفا الموت وموت على شفة الحياة. ومالي أتسمر هكذا كالمكوبس.. من يوقظني لأتحرّك... ولو أيقظني مـت... النّاس نيام فإذا ماتوا انتبهوا. وأنا لست نائماً ولا يقظان أنا في ثالث الحالين، ولا يتحرك في جسمـي إلا عيناي. كونا رسولي إلى هذه الفرعونة الخضـراء، وألقيا عليهـا نظرة لينة لعلـها تذكر أو تحنّ أو حتى تحس وتقسـو... هاتها ياخيالـي الجامـح... عوّض ذاكرتـي المثقوبة وحرك كاميراك

إلى الأسفل... وهاهاتها: الثوب الوردي الشفاف يكشف... الورد الرقيق المرهف يشي بي ويشي لي كالعميل المزدوج... يا شيطان الفتنة الفاصل الواصل بيني وبينها ثم بينها وبيني، صف لي وفصّل ما وراءك: حجلتان رابضتان على الصدر... مرمر حيّ يتنفس وله منقار أحمر يبغمُ يبغمُ يبغمُ وأنا أرنو مبهوراً، أسأل: هل يمكن أن ألمس في رفق بيدي؟ فيقول نعم ويقول نعم ويقول نعم، فتزول الكَبسة والحُبسة عني لكن لا أتقدم لا أتكلم. أذوب من الفتنة كالمحلول المحروم وأنصبّ بكل عفافي في عينيّ الفاسقتين وأجحظُ.. ألحظ تحت الصدر قليلاً صُبرة القمح المباركة فأخشعُ... يا بيدر الله المقدسَ هل أخلع عينيّ؟

وتحت الصبرة، بين أشجار الغابة المتوحشة أسير كالمتلصص وأنا ــ وكما لو في غابة استوائية ــ أحس بخليط فاغم من روائح الشجر والعشب، ورطوبة الجو، وأصوات تنفس حيوانات غير مرئية، يحيط بي ويضغط علي حواسي، فأتوقع الخطر الكامن في خطوتي القادمة وأتأهب كالكشاف.

ماذا يكمن خلف الهضبة؟ ما الذي يتحرك خلف الشجرة؟ خلف المنعطف الصخرة والينبوع؟ من ذا يجلس أو يستلقي كالطفل هناك؟... من فوق، وكأيّ مظلّي، أطلّ على وعدي... مكتوبي الأسود يجثم في

نقطة الخاء من الفخذين كما يجثم قدَر أسود صغير في نقطة الغين من الغد. (أختي الصغيرة). أختي الصغيرة باردة ككانـون الشهر ساخنة ككانون الخبز... قولي لي ياكانـون حياتي: ماذا تخبـئ لي الأقـدار؟ قالت الأخت الصغيرة هامسة لشعري المنتصب كشوك القنفذ: (ما سيكون كـان.. فغادر المكان).

الكهف،

...فغادرت المكان. غادرت المكان إلى المكان. انطلقت من ميم المكان لأتغلغل في كاف المكان ونونه... في كهفه. والكهف بئر شطون. ولا أشطان لي . لم أجد إلا ساقيّ. وأنا مدين لهما

هـمـا دلّتانـي مـن ثـمـانيـن قـامـة
كـما انقضّ بازٍ أقتمُ الرّيش كاسرُه

دلتاني من حالق فتدليت. ودلتاني على طريقي فاهتديت أو خلت. تقدمت في الكهف المظلم على أي حال. أشعلت عـود ثقاب، فتكشف لي على الجـدران ظلٌّ عمـلاق يسير معي. هل كان أنا؟ هل كنت أناه؟ أو كنا معاً حلماً في الكهف أو حلـم الكـهف أو حلماً في حلم يحلولم وحده؟ أتغلغل في الكهف، وخلفي... فوقي... حولي الظـل... أراه بروحي في الظلمة

أسمعه يشخر... ينفخ في شعر قفاي... يتجسد غولاً مشتعل العينين. أضاء بعينيه الكهف المظلم حتى لرأيت عروق المعدن في سقف الكهف. ذهب؟ نحاس؟ فوسفات؟ أم دم؟ أم دم؟

الظل الغول أليف لا يؤذي. بل ها هو يبتسم فتبدو على الحائط أشكال مذاري ومناجل.. أبتسم وفرائصي ترتعد... وأتقدم. أتوغل عميقاً في الكهف حتى يبدو لي ــ وعلى نتوء بارز من جدار الكهف ــ عصفور نائم لا يتحرك. نائم مُسبت ربما منذ ثلاثمائة سنة. لم أتبيّن ألوان ريش العصفور. أخذته بين يدي. أحسست به حيا دافئا . وضعيفا مستسلما. خفت عليه من الغول الكابس عليّ، فأردت أن أخبئه تحت ثيابي، لكني خفت أن يختنق. وبينما أنا أتردد بين الخوف عليه من الخارج والخوف عليه من الداخل، أخذت أتأمله. أتأمله وهو تحت عينيّ... يتحول... يصبح شفافاً، أشبه بكرة ساحر بلورية. وأنا أتأمله وأبصر فيه عالمي كله: أشياء أليفة وأشخاص وأمكنة وصور كلها مألوف. أتذكره جملة لا تحديدا... فجأة يبدو لي سهل واسع أبيض تماماً من الثلج الذي يغطيه ــ وبكثافة ــ كلّه. وفي وسط الغطاء الأبيض... زهرة لا تكاد تبين. زهرة صغيرة بردانة وحيدة. تغرورق لها عيناي (من الفرح بها؟ العطف عليها؟)، فتبدو من خلل الدمع كأنها ترتجف... فأرتجف. وأتذكر شعراً كنت قد نسيته:

"الخوف ينتقل من شخص لآخر
كما تنقل ورقة رعشتها
لورقة أخرى
ترتعش الشجرة كل الشجرة فجأة
ولا أثر لريح"

أمد يدي إلى الزهرة لألمسها، فتسبقني يد الظل وتقطفها. أجري وراءه كالمجنون، وهو يهرب مني ضاحكا ضحكته النارية. يجري وأجري... أجري ويجري... حتى اصطدمت عيناي فجأة بالضوء الباهر خارج الكهف. وتعثرت فهويت في الجرف العالي أسفل باب الكهف لولا أن أنقذني غصن شجرة تشبثتُ به بيديّ الاثنتين.

معلق بين السماء والأرض أنا... أنظر إلى السماء البعيدة فيُعشي ضوء الشمس عينيّ. أنظر إلى الأرض البعيدة فأبصر ـ رغم البعد ـ زهرتي الصغيرة مرمية على التراب.

ماذا أفعل؟ أهوي إلى الأرض لأنقذ زهرتي كأورفيوس، ولا هادي، فأتهشم، أم أحلق في السماء كإيكاروس، ولا ريش لي، فأحترق؟؟

مكتظٌ أنا كساحة من ساحات المحشر. تجري في دمائي، مع دمائي، شوارع وعمارات وحافلات وتراموايات وطاكسيات... وجماهير وحيدة. لم أر قط جمهوراً وحيداً من قبل. آلاف الناس مزدحمين ولا أحد يكلم أحداً. لا أحد يعرف أحداً. كل واحد مشغول عن كل أحد. جمهور أحد وحيد صامت من الخارج، وكل واحد يلغو في داخله ويصطخب، وأنا أسمع حتى لكدت أُصمُّ. أشياء... أشياء أشياء. أوراق وأعواد وميكات وسجائر وزجاج وأخشاب وأفكار وآراء وصور... سلع سلع سلع. تسلَّعَ دمي وأصبحت سوقاً. والبشر والحجر والحديد والبضائع تنغل بداخلي ككمشة حشرات تحت حجر. لو تزحزحتُ انهرقَت على الأرض وفضحَت تماسكي ووحدتي وثباتي. ولكن عينيها خضراوان. أرحل داخلي. أركب حافلات وقطارات وسيارات وطائرات... أركب حميراً وبغالاً وخيلاً وجِمالاً.. تحملني فوق ظهورهن أمهات وأخوات وجارات... أرحل أرحل أرحل... حتى أصل إلى الخضرة... عيناها خضراوان... حقول الشعير والقمح تُهفهف سنابلَها ريحُ نيسان، فتُشيع الخضرة في الجو. أشجار الحديقة خضراء. الغابات البعيدة في الأفق خضراء. حتى السماء الزرقاء تخضوضر مثل ضاية تنعكس في

مائها خضرة الأرض. الكون كلــه طفل صغير أخضر لم يتعلم بعدُ الكــلام. يلغو ويقــرزم وينــادي من شفتيــه الكونيــتين الخضراوين: زهرة.. زهرة .. زهرة. يلغو ويلعب وهو فرحان. الأخضر لا يحزن. والخضرة صافية نديّة كأنها عشبٌ ربيعي ممطور... عيناها خضراوان.

الفهرس

المكتبة 6

شخصيات خاصة جداً 10

التـعب 16

الوحشة 21

الحُزن 27

البُكاء..... 32

الحب 38

الفرح..... 42

الصّمت..... 49

الظل..... 53

الشك..... 61

الكهف..... 69

صدر عن دار طارق للنشر

- **محنة الفراغ**، أحمد المرزوقي، 2012
- **الممر**، عبد الفتاح فاكهاني، 2010
- **المغرب مقاربة جديدة في الجغرافية الجهوية**، تحت إشراف جون فرانسوا تروان، (*Jean- François Troin*) 2007
- **التحرر من السجن**، أحمد عثماني، 2006
- **أبطال بلا مجد**، مهدي بنونة، 2005
- **سلطان الطلبة**، عبد الصمد كنفاوي، 2004
- **تزممارت الزنزانة رقم 10**، أحمد المرزوقي، 2003
- **تحت ظلال للالة شافية**، إدريس بويسف، 2002
- **مغرب المرحلة الإنتقالية**، بيير فيرمورين، (*Pierre Vermeren*) 2001
- **حاملي الشهادات المعطلين**، أطاك المغرب، مجموعة الرباط، (*ATTAC MAROC*) 2001
- **مقال في العبودية المختارة**، إتين دولا بوسي، (*Étienne de la Boétie*) 2000

منشورات طارق
321، شارع إبراهيم الروداني -الدار البيضاء- المغرب
العنوان الإلكتروني : tarik.edition@gmail.com
الموقع الإلكتروني : www.tarikeditions.com

مطبعة المعارف الجديدة – الرباط/2013 (CTP)

« ما رأيها؟ ورأيها أن أذهب أنا معها.. أُوصلها إلى بيتها، وأعود إذا شئت أو أبيت في بيتها. ليس معها في البيت إلا ابن عم معاق... ألن يعترض على وجود رجل غريب في البيت؟ كلا لن يعترض. هو مُقعد ومريض، وهي ترعاه حتى تخرج التحاليل التي أجراها.. ويعطيه الطبيب وصفة الدواء، لتعيده إلى العروبية. هل يذهب معها؟ وإذا كان في بيتها أبناء عم لا ابن عم واحد؟ وإذا كان ابن العم صحيحا ينتظر بشلاغمه في البيت ضحية اليوم؟ وإذا كان ينتظرنا في الطريق أفراد العصابة الآخرون؟ وإذا كانت مصابة بالسيدا؟ وإذا كانت جنيّة؟ نظرت إلى قدميها فرابني حذاؤها الغريب. هل بداخله أظلاف؟ »

يطل علينا من جديد الكاتب المغربي أحمد بوزفور من « نافذة على الداخل » بطرح عدة تساؤلات محيرة في حد ذاتها، تجعل القارئ متلهفًا لمعرفتها، لكون هذه المجموعة القصصية «تركيبة» استثنائية، قد تكون القصّة في نهاية المطاف عتبة لا بيتاً؟ أو لعلّ الإقامة لا تكون إلا في العتبات والمعابر، وكأنما البيوت ليست سوى نوافذ!

أحمد بوزفور. كاتب مغربي. صدرت أولى قصصه سنة 1971 وتوالت إصداراته القصصية بعد ذلك. صدر له:

- «ديوان السندباد» مجموعات قصصية.
- «الزرافة المشتعلة» قراءات في القصة المغربية.
- «تأبط شعرًا» دراسة في الشعر الجاهلي

978-9954-419-73-1

9 789954 419731

TARIK

25 درهم

P.Euro : 6 €